أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي بين عامي (588 – 648هـ /1192–1250م)

الباحث: محمد الجاسم د . مصطفى قداد

معهد الدراسات العليا– جامعة ماردين ارتقلو معهد الدراسات العليا– جامعة ماردين ارتقلو

تركيا تركيا

الكلمات المفتاحية: التاريخ الاسلامي، الدولة الأيوبية، القدس.

الملخص:

يقدم هذا البحث إلقاء نظرة تاريخية لدور القدس في مختلف مراحل الصراع الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي 1152م، وحتى سقوط الدولة الأيوبية سنة1250م، حيث يظهر البحث أن القدس كانت النقطة الجوهرية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكان لها الدور الهام في تحديد موقف الطرفين ومبرراته في الاتصالات والمفاوضات التي عقدت بين الطرفين خلال فترة الصراع الطويلة.

وقد اعتمد البحث المنهجية التاريخية من خلال جمع ونقد وتحليل الروايات التاريخية التي تناولت المراحل المختلفة للمفاوضات وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين تناولنا في المبحث الأول أهمية القدس لدى الصليبيين ومحاولات استعادتها، والمبحث الثاني تناول القدس من اتفاقية يافا حتى سقوط الدولة الايوبية.

وقد واستند البحث على المصادر التاريخية بشكل رئيسي، دون إهمال بعض الدراسات العربية الحديثة التي تناولت بعض جوانب الصراع. وأظهرت الدراسة أن القدس كانت دائماً كما كانت من قبل النقطة المركزية في الصراع الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى بعد أخر تحرير لها على يد الخوارزميين سنة 1244م، إذ اتخذ الجميع منها ورقة هامة سواء لتحقيق السلم أو الحرب على السواء، وكان الموقف منها له أثره الكبير في المفاوضات وكذلك في تشكيل التحالفات الكثيرة التي شهدتها تلك الفترة .

المقدمة:

تعد القدس من المدن الدينية الهامة في العالم، وتحظى بأهمية خاصة بالنسبة للإسلام والمسيحية واليهودية، حيث تعتبر المكان الذي ولدت فيه الديانات السماوية الثلاثة وتوجد

فيه أهم المعالم والأماكن الدينية في هذه الديانات، ومن بينها المسجد الأقصى وكنيسة القيامة.

وللقدس مكانة دينيّة مهمّة لدى المسلمين تتمثّل بكونها مكاناً مُقدَّساً للمسلمين؛ نظراً للعوامل الآتية: فيها المسجد الأقصى المبارك: ويعتبر المسجد الأقصى أولى القبلتين وثاني مسجد بني في الأرض، وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال والأهمية الدينية للقدس لدى المسيحيين اذ تعد القدس مدينة مقدسة في الديانة المسيحية ففيها عاش المسيح -عليه السلام- ويرى اتباع الديانة المسيحية أن المسيح صلب في القدس وقام منها إلى السماء، وفيها كنيسة القيامة وطريق الآلام الذي يرى أتباع الديانة المسيحية أن المسيح سار عبره إلى مرقع صلبه، كما تشكل القدس وجهة حج للمسيحيين، وفيها عدد كبير من الكنائس التي حافظت على وجودها في ظل الحكم الإسلامي لمدينة القدس بسبب العهدة العمرية، والأهمية الدينية للقدس لدى اليهود يقدس اليهود مدينة القدس ويعتبرون أنها وردت باسمها صراحة بشكل متكرر في الكتاب المقدس، ويزعمون أن الملك سليمان بنى فيها معبداً لليهود وأن الرب وعدهم بأن تكون هذه الأرض لهم ولنسلهم كما يورد العهد القديم بأنه سيعطي هذه الأرض لإبراهيم ولنسله من بعده.

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، عانت القدس من الصراعات الدينية والسياسية المستمرة بين المسلمين والصليبيين، حيث بدأت الحروب الصليبية في العام 1096م واستمرت حتى القرن الثالث عشر الميلادي. واختلفت الأسباب التي حملت الصَّليبِين على مهاجمة الدولة الإسلامية، ومن هذه الأسباب منها دينيّة تُعتبر الأسباب الدينية من أهم الأسباب وراء الحملات الصليبيّة، حيث حاول الصَّليبيّون القضاء على المسلمين ومنع انتشار الدين الإسلامي، والوقوف في وجه توسعهم المستمر، ولذلك تذرّع الصليبيون بحقّهم في الأراضي المقدسة في فلسطين وإرجاعه إلى المسيحيين، وهذا كان ظاهراً في الحملات الصليبيّة الأولى حيث كان يلبس المحاربون الصليب بشكلٍ دائم، كما اعتبرها الكثير ممن شاركوا فيها بأنّها وسيلة للفداء وتكفير الذنوب.

احتل المسلمون ما يقارب ثلثي العالم المسيحي القديم بحلول نهاية القرن الـ 11م، بما في ذلك المناطق المهمة في فلسطين، وسوريا، ومصر، والأناضول، فعملت الحملات الصليبية على منع هذا التوسع والتقدم حيث أسست دولة مسيحية في فلسطين وسوريا، لكن النمو المستمر للدول الإسلامية منع من تحقيق أهداف هذه الحملات.

و اقتصادية كان الهدف الاقتصادي الأساسي وراء الحملات الصليبية هو احتكار المراكز التجارية المهمة والمزدهرة الخاضعة لسيطرة المسلمين مثل أنطاكية والقدس، ولكسب الأموال من نقل الصليبيين إلى الشرق الأوسط، فمنذ الحملة الصليبية الثانية (1147-1149م) تم وضع عقود مربحة مسبقًا لشحن الجيوش إلى الشرق الأوسط. كان بين الولايات التجارية الإيطالية البندقية، وبيزا، وجنوة، وكذلك مرسيليا في فرنسا منافسة قوية، وكان كلٍ منها حريصًا على احتكار التجارة بين الشرق والغرب.

وفي هذه الدراسة سنتناول الفترة بين عامي 1192م و1250م ونسلط الضوء على أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي خلال هذه الفترة، التي شهدت القدس عدة حروب وصراعات بين الأطراف المختلفة، حيث كانت المدينة تحت سيطرة المسلمين في بداية الفترة، ثم استعادتها الصليبيون في عام 1099م، واستمرت تحت سيطرتهم حتى عام 1187م حيث استعادها صلاح الدين الأيوبي. وبعد ذلك، تم التوصل إلى اتفاق سلام بين المسلمين والصليبيين في عام 1192م التي مثلتها معاهدة الرملة وقعها صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد في يونيو 1192 بعد معركة أرسوف أثناء الحملة الصليبية الثالثة. بموجب شروط الاتفاق، ستبقى القدس تحت حكم المسلمين، والذي نص على إعطاء الصليبيين حق الزيارة للقدس، ولكن دون السيطرة الفعلية عليها. ومع ذلك، لم تنته الصراعات في المنطقة، حيث استمرت المعارك بين الجانبين على المدى الطويل، وشهدت القدس معارك عنيفة خلال الفترة بين عامي 1192م و1250م، والتي شملت الهجمات المتبادلة بين المسلمين والصليبيين على المدينة ومحيطها، والتي كانت تهدف بشكل رئيسي إلى السيطرة على الأماكن المقدسة في المدينة.

وبالتالي، فإن القدس كانت محور صراعات دينية وسياسية مستمرة خلال الفترة بين عامي 1192م و1250م، وتحظى بأهمية كبيرة في تاريخ المنطقة والديانات السماوية، وتشكل موضوع بحث مهم لفهم أهمية المدينة ودورها في الصراعات الدينية والسياسية في العصور الوسطى.

كانت القدس النقطة المحورية في مفاوضات (صلح يافا) 1229م، فقد ظلت كذلك تلعب دورا مركزياً وهاماً في الصراع الصليبي الإسلامي، كما مرت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الايوبي بمراحل حرجة من الانقسام، فقد احتفظ ابنه الملك الأفضل بدمشق، وابنه العزيز عثمان بمصر، وابنه الملك الظافر بحلب، بينما كان أخيه الملك العادل في الكرك[1]، ودخل هؤلاء في مرحلة من الصراع المرير انتهى بوصول الملك العادل إلى السلطة، وإعادة توحيد الدولة من

جديد[2]. وعادت الدولة الأيوبية لتعاني من الانقسام مجددا بعد وفاة الملك العادل، وفشل الحملة الصليبية الخامسة، إذ حل الملك الكامل مكان والده العادل في مصر، بينما أصبحت دمشق من نصيب الابن الثاني للعادل الملك المعظم عيسى، في حين كانت الجزيرة، من نصيب الابن الثالث للعادل الأشرف موسى، وحلب لابن عمهما صلاح الدين قلج ارسلان[3]

مشكلة البحث:

تبرز مشكلة البحث من خلال السؤال المحوري التالي:

* ما هي أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي؟

ولنصل إلى الإجابة عن هذا السؤال المحوري لا بد من أن نتوصل إلى الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:

1- ما هي أهمية القدس الدينية والسياسية بالنسبة للمسلمين والصليبين؟
2- ما هي آليات الصراع الصليبي الإسلامي للسيطرة على مدينة القدس؟
3- هل انصفت مفاوضات (صلح يافا) المسلمين والصليبيين؟
4- ما هي نتائج المفاوضات بين الإمبراطور فردريك و الكامل؟
5- ماهي الاثار والنتائج لاتفاقية تسليم القدس (صلح يافا)؟
6- ما هي اسباب سقوط الدولة الايوبية في القدس؟

أهداف البحث

تتضمن أهداف البحث بعنوان "أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي بين عامي (1192-1250م)" ما يلي:

1- دراسة أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي خلال الفترة من عام 1192م حتى سقوط الدولة الأيوبية في عام 1250م.
2- تحليل أسباب الصراع الإسلامي الصليبي على القدس ودور القدس في الصراع بين الأديان المختلفة.
3- تحديد الأحداث التي شهدتها القدس خلال هذه الفترة، وتحليل تأثير هذه الأحداث على تاريخ المدينة وسكانها.
4- دراسة دور القادة الإسلاميين والصليبيين في الصراع على القدس، وتحليل استراتيجياتهم وأساليبهم في المعارك.

أسباب اختيار البحث

تناولت الدراسات الحديثة الحروب الصليبية بشكل موسع، وكتبت الكثير من الأبحاث حول الكثير من القضايا المتعلقة بهذه الفترة، ومع كل هذا، فإن هناك كثير من القضايا لا تزال بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث .لقد علق الدارسون المحدثون كثيراً على موقف الأمراء الأيوبيين من القدس، وانقسموا ما بين مؤيد أو معارض أو مبرر، لما أقدموا عليه من تصرفات وبخاصة فيما يتعلق بما أقدم عليه الملك الكامل، ولا تهدف هذه الدراسة إلى تناول هذه الجوانب وإنما سوف تتناول الدور السياسي للقدس في الصراع الإسلامي الصليبي بعد هدنة الرملة، إذ أن هذه القضية من المواضيع الهامة التي لم تحظ بعناية واهتمام الباحثين، حيث لم يتم تناولها إلا بشكل عابر من خلال الحديث عن الحروب الصليبية بشكل عام، وعن الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة بشكل خاص، دون التركيز على دور القدس السياسي في الأحداث الهامة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي، سواء في تحديد العلاقة بين الايوبيين والصليبين، أو حتى في تحديد العلاقة بين الامراء الايوبيين أنفسهم إبان مراحل الانقسام والصراع على السلطة، الذي كانت تشهده الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الايوبي.

أهمية البحث

تأتي أهمية هذا البحث في كونها تسلط الضوء، وتعطي رؤية تاريخية للدور السياسي للقدس في مراحل الصراع الصليبي الإسلامي والإسلامي الإسلامي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى سقوط الدولة الأيوبية، من خلال نقد وتحليل النصوص التاريخية اعتماداً على المصادر التاريخية بالمقام الأول، دون اغفال لبعض الدراسات الحديثة التي تطرقت إلى جوانب على علاقة بالبحث، وإظهار الدور الذي لعبته المدينة في تحديد مواقف الاطراف المختلفة في الصراع.

الحدود الموضوعية والزمانية والمكانية لموضوع البحث:

اتخذ البحث الحالي حدوداً له، تتلخص في:

الحدود الموضوعية: أهمية القدس في الصراع الإسلامي الصليبي

الحدود الزمنية: الفترة الممتدة من هدنة الرملة التي تمت في عام 1192م حتى سقوط الدولة الأيوبية في عام 1250م.

الحدود المكانية: مصر وبلاد الشام

منهجية البحث:

لقد تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي والوصفي، وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى مبحثين على الشكل التالي: المبحث الأول تناول أهمية القدس لدى الصليبيين

ومحاولات استعادتها، والمبحث الثاني تناول القدس من اتفاقية يافا حتى سقوط الدولة الايوبية، وينتهي البحث بخاتمة تعرض أهم النتائج المستخلصة.

المبحث الأول: أهمية القدس لدى الصليبيين ومحاولات استعادتها

بعد فتح القدس عام 638م من قبل المسلمين، استمر الحكم الإسلامي على المدينة لما يقرب من 500 عام، ولكن بعد ذلك ونتيجة للحملات الصليبية التي بدأت في القرن الحادي عشر، استعاد الصليبيون القدس عام 1099م، وبالنسبة للصليبيين، كان استعادة القدس أمراً مهماً للغاية لأسباب دينية وسياسية، لذلك، دعت الكنيسة إلى إرسال جيوش لاستعادة القدس. وفي عام 1095م، دعا البابا أوربان الثاني إلى حملة صليبية. وخلال السنوات التالية، قاد الصليبيون حملات عسكرية إلى مصر وبلاد الشام واحتلوا العديد من المدن والمواقع الإسلامية، بما في ذلك القدس.

المطلب الأول: القدس في ظل الحملة الصليبية الخامسة

جاءت الحملة الصليبية الخامسة بتشجيع من المبشرين في فرنسا ومن البابا أنوسنت الثالث الذي أعلن أن لمسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأنه لا بد من دعمها بالمال والرجال والعمل على إعادتها إلى ما كانت عليه، وكتب إلى الملك العادل بأن يسلمه بيت المقدس[4]. وحاول البابا الاستفادة من الحماس وجهود بعض المبشرين وبخاصة في فرنسا، فبدأ بالتمهيد للدعوة للقيام بحملة صليبية جديدة[5]، فعمل على عقد مؤتمر عرف باسم مجلس لاتيران الكنسي في 1215م، شارك فيه كبار رجال الدين في الغرب والشرق، وجمع كبير من الأمراء الغير مهتمين بالشؤون الدينية، حيث بلغ عدد المشاركين فيه بالآلاف، ألقى فيهم البابا خطبة بليغة تحدث فيها عما تعانيه القدس تحت حكم المسلمين الذين ينتهكون حرمة كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح، مطالبا الحاضرين بمساعدته في تحريرها، وهو ما قابله المجتمعون بحماس شديد متفقين على توجه حملة صليبية إلى مصر بعد أن وضعوا خطط ذلك[6].

من الواضح أن هدف الحملة الصليبية الخامسة هو رغبة الأوروبيين في محو أثار الهزائم التي لحقت بهم على يد صلاح الدين الأيوبي، وفشل الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة في استرداد القدس من أيدي المسلمين، وإعادة السيطرة الصليبية عليها مرة أخرى[7]، أي أن القدس كان لها الدور المركزي والمحوري الأول الذي استندت إليه هذه الحملة كما كان الحال في الحملات السابقة.

وفي هذه الحملة التي حشدت فيها البابوية إمكانيات ضخمة، كان التخطيط مشابهاً للحملة الرابعة في أن تتوجه إلى مصر أولاً، وذلك لإدراك الصليبيين مدى أهمية مصر في الصراع مع المسلمين في بلاد الشام، وقناعتهم بأنه سوف يكون من الصعب عليهم استرداد القدس دون أن مفتاحا لبلاد الشام، وعن هذا يقوي تمكنوا من السيطرة على مصر التي كانوا يعتبرونها مفتاحاً لبلاد الشام، وعن هذا يقول ابن واصل: لما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدأون بقصده، فأشار عقلائهم بقصد الديار المصرية أولا، وقالوا : "إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد[8]"

وقد مرت مصر خلال الحملة الصليبية الخامسة بظروف صعبة جداً بسبب شراسة الحملة[9]، إذ توفي الملك العادل أثنائها[10]، وحل مكانه ابنه الكامل، فكان عليه أن يواصل القتال ضد للصليبيين الذين قاموا باقتحام دمياط قبل وفاة العادل[11]، وكذلك مواجهة الاضطرابات الداخلية التي أثارها الأعراب القادمين من سيناء والشرقية بدرجة خطيرة[12]، وأخيرا التصدي للمؤامرة التي دبرها الأمير عماد أحمد بن علي المكنى بابن المشطوب لعزله عن الحكم[13]، وهذه الأوضاع التي أجبرته إلى الهرب وطلب مد يد العون من أخواه المعظم والأشرف في الشام.

أظهر أبناء العادل قدراً كبيراً من التضامن والتعاون أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لإدراكهم بأن سقوط مصر بيد الصليبيين، سوف يتبعها سيطرتهم على بلاد الشام، إذ أن اهتمام الصليبيين بالسيطرة على مصر لترسيخ سيطرتهم على بلاد الشام قد ظهرت في مرحلة مبكرة من الحروب الصليبية، وعلى هذا الأساس اجتمع الأخوة الثلاثة : الكامل والمعظم والأشرف لمواصلة القتال، فنجح المعظم في التخلص من ابن المشطوب، وإعادة تنظيم الجيش الإسلامي قبل أن يعود إلى بلاد الشام ليهدم أسوار القدس، لخوفه من استيلاء الصليبيين عليها.

إن عودة المعظم من مصر إلى بلاد الشام لهدم أسوار القدس، يلقي الضوء على مدى إدراك الأيوبيين لمركزية دور القدس وأهميته في الصراع، وأنها قد تكون ورقة هامة للمساومة سوف يحاولون من خلالها إغراء الصليبيين بها في أية مفاوضات قد تحدث بين الطرفين، إذ أنه لم يكن بعيدا عنهم أن القدس هي الهدف الأول للصليبيين، ولعل هذا ما يفسر إصرار المعظم على هدم الأسوار رغم تلكؤ البعض وضجر السكان والناس، وما أصابهم من جراء ذلك، قال أبو المظفر كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل في دمياط وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم بيت

القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام.

وكان بالقدس أخوه عثمان، وعز الدين أيبك أستاذ الدار فكتب إليهما المعظم بخرابه : فتوقفا وقالا : نحن نحفظه .فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام[14].

أظهر أبناء العادل قدراً كبيراً من التضامن والتعاون أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لإدراكهم

بأن سقوط مصر بيد الصليبيين، سوف يتبعها سيطرتهم على بلاد الشام، إذ أن اهتمام الصليبيين بالسيطرة على مصر لترسيخ سيطرتهم على بلاد الشام قد ظهرت في مرحلة مبكرة من الحروب الصليبية[15]، وعلى هذا الاساس اجتمع الأخوة الثلاثة: الكامل والمعظم والاشرف لمواصلة القتال، فنجح المعظم في التخلص من ابن المشطوب، وإعادة تنظيم الجيش الإسلامي[16]. قبل أن يعود إلى بلاد الشام ليهدم أسوار القدس، لخوفه من استيلاء الصليبيين عليها[17].

فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت محراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين والأقصى وتركوا أموالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلأت بهم الطرقات، فبعظهم إلى مصر[18]، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات تمزقن ثيابهن وتربطها على أرجلهن من الحفا[19]. ومات خلق كثير من الجوع والعطش .وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها. ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس .

إن شراسة الحملة الصليبية الخامسة[20]، وإدراك الأيوبيين لأهمية القدس في الصراع، جعلتهم يفاوضون الصليبيين، ويقدمون لهم تنازلات سخية في بلاد الشام، فقد عرضوا عليهم تسليمهم القدس، أو بكلمات أخرى إعادة إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية مقابل الجلاء عن مصر، قال ابن الأثير: هذا يجري والرسل مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصلح، وبذل المسلمين لهم تسليم البيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل وما تقدم ذكره ما عدا الكرك، ليسلموا دمياط، فلم يرضوا، وطلب ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا: لا بد من الكرك، فبينما الأمر هذا وهم يمنعون، فاضطر المسلمون إلى قتالهم، وكان الفرنج

لاقتدارهم في نفوسهم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم.

يبدو من النصوص السابقة أن المفاوضات كانت شاقة وعسيرة، وأن الصليبيين قد أظهروا فيها قدراً كبيراً من التشدد كان يقابله تراجع في الموقف الأيوبي والاستعداد لتقديم مزيداً من التنازلات أملاً في الوصول إلى اتفاق ينقذ مصر وبالتالي ينقذ الدولة برمتها .

كما يبدوا واضحا أنه كلما أظهر الأيوبيين استعدادا للتنازل كلما تشدد الصليبيون أكثر بحيث يضعون شروطاً جديدة، إذ عرض الأيوبيين بداية التنازل عن القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر مافتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل باستثناء الكرك والشوبك لأهميتهما . مقابل تسليم دمياط والإنسحاب من مصر، ولكن الصليبيين أصروا عليهما فاضطر الأيوبيين إلى الموافقة، ولكن الصليبيين أضافوا شرطا جديدا يتضمن الحصول على ثلاثمائة ألف دينار ليعمروا بها أسوار القدس، التي كان المعظم قد هدمها.

ويبدوا أن الأيوبيين قد اعتقدوا بداية أن التنازل للصليبيين عن القدس و سائر فتوح صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك قد يكون كافيا للوصول إلى اتفاق وذلك نظرا لأهمية القدس للصليبيين.

يظهر أن القدس قد لعبت مرة أخرى الدور المركزي والمحوري في الحملة الصليبية الخامسة، وسواء أكان ذلك مقصودا وهو الأمر المستبعد، أو غير مقصود وهو الأرجح، فإن هذا العرض السخي قد سبب انقساما بين الصليبيين ما بين رافض أو مواف، وذلك لتضارب المصالح بين المشاركين في الحملة ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تغليب وجهة نظر الرافضين لهذا العرض. وهنا يمكن القول أن الصليبيين ربما قد اعتقدوا بأنه وبعد حصولهم على القدس يمكن لهم ابتزاز الأيوبيين بأكبر قدر ممكن من المناطق الأخرى في بلاد الشام مقابل الانسحاب عن مصر، كما أن الأيوبيين قد اعتقدوا أيضا أن عروضهم السخية وبخاصة فيما يتعلق بالقدس سوف تلقى قبولا لدى الجانب الصليبي وأنها سوف تكون كافية للوصول إلى اتفاق، ونظرا لأن طلبات الصليبيين المتتابعة قدرتهم على تنفيذها، لم يكن أمامهم إلا الاستمرار في القتال الذي أدى في النهاية إلى حدوث انقلاب نتج عنه فشل الحملة، وانسحاب الصليبيين عن مصر[21].

المطلب الثاني: القدس في ظل الحملة الصليبية السادسة

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، توجه ملك حنا دي برين ملك مملكة بيت المقدس لمقابلة البابا، كما زار كل من فرنسا واسبانيا للدعوة لحملة صليبية جديدة تنقذ القدس من أيدي المسلمين، كما زار بالترتيب مع البابا الإمبراطور فردريك وزوجه من ابنته بولاند[22] ، لربط

الإمبراطور بالأراضي المقدسة وجعله يشارك في حملة صليبية جديدة، وهو ما وعد به الإمبراطور مندوبي البابا وأقسم عليه قبل إتمام الزواج[23] ، أما بعد الزواج فقد اعتبر الإمبراطور أن عرش مملكة بيت المقدس قد أصبح من حقوق زوجته، وأن حنا دي برين لم يعد وصياً على العرش[24]، وهو ما أدى إلى تفاقم الخلاف الموجود أصلا بين الإمبراطور والبابا.

وهكذا فقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى المنطقة في ظل متغيرات متسارعة في المنطقتين الإسلامية والأوروبية على السواء، فعلى الرغم من إجماع المصادر على أن الإمبراطور كان مثقفاً، وعالماً بالفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ، وأنه بحكم نشأته في جزيرة صقلية لم يكن يحمل كرهاً كبيراً للمسلمين[25] ، ولعل هذا هو السبب الذي دفع البعض إلى الذهاب إلى أنه كان مسلماً في الباطن[26].

وقد كان الإمبراطور ولأسباب كثيرة على خلاف كبير مع البابا بسبب الصراع الكبير بين البابوية والإمبراطورية المقدسة في تلك الفترة[27]، حيث كانت البابوية تضغط عليه ضغطا شديدا للقيام بحملة صليبية جديدة بعد فشل الحملة الخامسة[28]، ولكن الإمبراطور كان متخوفا من القيام بذلك لئلا يمكن البابا من العدوان على الإمبراطورية المقدسة أثناء غيابه، فأخذ يماطل البابوية، وبوصول دعوة الكامل إليه لمحالفته ضد المعظم تهيأت الظروف له للقيام بهذه الحملة فوصل من الجنوب إلى صقلية، ومنها إلى عكا بعد رحلة، تخللها خلاف كبير مع البابا.

أما في الجانب الإسلامي، فبعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، فرض الملك الكامل سلطانه على الأمراء الأيوبيين، ولكن الدولة لم تلبث أن مرت مرة أخرى بمراحل حرجة من الانقسام، إذ دب الخلاف بين الملك المعظم وأخويه الكامل والأشرف[29]، أما الملك الكامل فقد عمل على كسب الأمراء الأيوبيين إلى جانبه، وإبعادهم عن أخيه المعظم[30]، فقام المعظم بدعم الثورة التي قام به شهاب الدين على أخيه الملك الأشرف في خلاط ، كما قام بإلقاء القبض على أخيه الأشرف، وإجباره على التعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه ومهاجمة الملك الكامل في مصر، وقد تعهد الأشرف بذلك ، وذلك عندما توجه الأشرف إليه طالبا منه المساعدة أمام الخطر الخوارزمي، عندما شرع الخوارزميين في مهاجمة جورجيا قرب من ممتلكاته في خلاط، ولكنه ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم حتى وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث وتأول في إيمانه التي حلفها أنه كان مكرها عليها .كذلك أقام المعظم حلفا مع السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه ومظفر الدين بن زين الدين صاحب مع صاحب إربل ، حيث وعد

خوارزم شاه بأن تكون له الخطبة والسكة في دمشق ، فرد جلال الدين بأن أرسل للمعظم خلعة لبسها وشق بها دمشق، وقطع الخطبة للكامل.

بهذا بدا واضحا أن الأمور بين الأخوين الكامل والمعظم قد سارت في طريق مسدود، وأن كل منها[31]، بدأ يبحث عن حلفاء خارجيين ضد أخيه، ويظهر أنه باستعانة المعظم بالخوارزميين ومحالفته لهم، جعل الملك الكامل يسارع إلى طلب المساعدة والتحالف مع الإمبراطور فردريك الثاني ملك جزيرة صقلية وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في غرب أوروبا، وكان رسوله إليه الأمير فخر الدين يوسف يستدعيه إلى القدوم إلى الشام[32]، ليشغل سر أخيه المعظم، إذ انه تخوف من أن يؤدي تحالف المعظم مع الخوارزميين ليس فقط إلى ضياع مصر، بل إلى زوال الدولة الأيوبية ككل، إذ تؤكد الكثير من الروايات أن الكامل كان يخشى المعظم أصلا وهو ما يعني أن هذا التحالف قد زاد من هذا الخوف ، قال ابن واصل" : وكان الملك الكامل -مع أن عسكره يناهز اثني عشر ألفا وسعة ملكه – لا يجسر على الخروج إلى الشام، ويظن أنه إن خرج إلى الشام انحاز أكثر عسكره إلى الملك المعظم[33]، وحيل بينه وبين الديار المصرية وكان والله الأمر كذلك؛ فكان لذلك يداريه ويهادنه في الظاهر، وكان الملك المعظم مع ذلك يداري أخاه الملك الكامل ويخطب له على منابر بلاده، ولا يذكر اسمه معه في غالب أوقاته، ويضرب السكة باسمه وكذلك يداري أخاه الملك الأشرف.

كما يفهم من رواية أوردها الداودري في كنز الدرر أن خشية الكامل من المعظم، إضافة إلى تحالف المعظم مع الخوارزميين لم يكونا الأسباب الوحيدة التي دفعت الكامل إلى التحالف مع الإمبراطور فردريك، فيضيف إلى ذلك سببا قويا أخر مفاده أن المعظم نفسه كان قد حاول التحالف مع الإمبراطور[34]، فقد جاء على لسان الكامل انه قال لأخيه الأشرف " : ما أحوجني إلى ذلك إلا المعظم، فإنه أعطى الأنبرور من الأردن إلى البحر، والضياع التي من باب القدس إلى يافا، فأحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضا .ولعل ما يجعلنا لا نستبعد مثل هذه الرواية هو توجه مندوب الإمبراطور بعد اجتماعه مع الكامل وإتمام الاتفاق لمقابلة المعظم لكي يطلب منه تسليم البلاد التي فتحها صلاح الدين[35] .يضاف إلى هذا، أن الكامل ربما اعتقد أن الصليبيين سوف لا يمكنهم المحافظة على القدس بعد تخريب أسوارها، وأنه من الممكن له أن يخرجهم منه عندما تستب له الأمور.

وفي مقابل مساعدة الإمبراطور للكامل، تعهد الأخير له بأن يعطيه بيت المقدس، وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل، فرد الإمبراطور بسفارة تحمل هدية سنية وتحف غريبة، فاستقبل الكامل البعثة استقبالا حسنا بنفسه وأكرمه إكراما زائدا وأعد له هدية فاخرة، ومر مبعوث

الإمبراطور على دمشق على المعظم بعد اجتماعه بالكامل[36]، وطلب من المعظم البلاد التي فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له وقال " : قل لصاحبك ما عندي إلا السيف"، ولكن المعظم سرعان ما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر داود، وهو ما يعني انهيار التحالف الذي بينه وبين كل من صاحب إربيل وخوارزم شاه، فبدأ الكامل يتطلع إلى أخذ ممتلكاته في بلاد الشام.

قام الكامل بعد وفاة المعظم بالتوجه إلى بلاد الشام، فلم يكن من الملك الناصر بن المعظم الذي خاف أن يستولي عمه الكامل على دمشق إلا الاستنجاد بعمه الأشرف، فأرسل الأشرف إلى الكامل يستعطفه، ويؤكد له أنه على تحالفه السابق معه، وأن عليهما العمل معا على منع الفرنج من أخذ بلاد الشام، فكان رد الكامل" : إني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنه لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين قد فتح بيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الأعصار، وممر الأيام، فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقبح الأحدوثة، ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس، وعند الله – تعالى –ثم أنهم لا يقنعون حينئذ بما أخذوه، ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر[37]، وأحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني : أني قاتلت أخي أو حصرته – حاشا لله تعالى .

يبدو أن الكامل كان متظاهرا في الرغبة في العودة إلى مصر وترك أمر حماية القدس للأشرف، لعلمه بأن الأشرف وأهل الشام لا قدرة لهم على مواجهة حملات صليبية جديدة بدونه، وأنه إذا عاد إلى مصر فان الصليبيين سوف يستولون على القدس وربما على أغلب بلاد الشام، وهو ما دفع الأشرف للحاق به لإقناعه بالبقاء في الشام، ومن ثم قام بالتحالف معه لأخذ دمشق من صاحبها الناصر داود وهو ما كان الكامل يهدف إلى تحقيقه بعد وفاة المعظم.

المطلب الثالث: وصول الإمبراطور فردريك والمفاوضات مع الكامل

تزامن وصول الإمبراطور إلى عكا مع وفاة المعظم و انهيار التحالف الذي كان قد عقده مع كل من صاحب إربيل و خوارزم شاه، وهو ما يعني بطبيعة الحال زوال الخطر الذي شكله هذا الحلف على الكامل، والذي بسببه قام باستدعاء الإمبراطور لمساعدته ضد أخيه.

بعد وصوله إلى عكا، بعث فردريك برسالة إلى الكامل يطالبه فيها تنفيذ ما تم الاتفاق عليه جاء فيها" : الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله ، وإطلاق الحقوق

بالإسكندرية وما فلا فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم،واعادتها إليكم .وما نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له "

وتصف المصادر موقف الكامل من هذه الرسالة، فتشير إلا انه أصيب بالحيرة، فهو من ناحية لا يمكنه رفض هذا الطلب المتفق عليه مسبقا، ولم يكن بإمكانه محاربة الإمبراطور في هذا التوقيت من ناحية أخرى، ولذا فإنه أرسل إليه الأمير فخر الدين بن الشيخ ملاطفا ومسايرا ، ليكسب بعض الوقت يقرر بعدها ماذا سوف يفعل .ويذهب البعض إلى القول أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته أن يصطدم بالصليبيين بالشام في هذه المرحلة التي تتعرض فيها لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول، فأراد أن يكسب بعض الوقت بأن يطيل أمد المفاوضات، لا سيما وأن الهدنة التي تمت عقب جلاء الصليبيين عن مصر لا ينتهي أجلها إلا في نهاية 1229م.

إن موقف الكامل المتردد، زاد من حراجة موقف فردريك في بلاد الشام، لا سيما أنه كان مترددا أصلا في الخروج على رأس حملة صليبية مما جعل البابا يغضب ويفرض عليه حرمانا من الكنيسة وربما أن عرض الكامل بتسليمه القدس مقابل مساعدته ضد أخيه المعظم، كان بمثابة طوقا للنجاة بالنسبة له للتخلص من الضغوط الشديدة التي مورست عليه للقيام بهذه الحملة، إذ وصله رسول الكامل وهو يستعد للقيام بالحملة لذا يبدو من الواضح انه قد عول كثيرا على هذا الوعد ليعيد له هيبته في الغرب، رغم انه لم يكتفي به وحده ، ولعل ما يدلل على هذا أنه لم يستقدم معه جيشا كبيرا قادرا الدخول في صراع مع المسلمين[38]، هذا بالإضافة إلى انه لا يمكن له أن يعول كثيرا على صليبي الشام نظرا لما كانوا يعانونه من ضعف وتفكك، والإمبراطور بالنسبة لهم أمير مغضوب عليه من البابا، ومحروم ومطرود من رحمة الكنيسة، وهو ما يفسر رفضهم للتعاون معه بعد وصوله.

ولعل ما ضاعف من صعوبة وضع الإمبراطور بعد وصوله إلى الشام[39]، أن البابا كان قد راسل بعض الأمراء الأيوبيين ومنهم الكامل يطلب منهم عدم تسليم القدس للإمبراطور كما وصلت أخبارا للإمبراطور تشير إلى اعتداء البابا على ممتلكاته في الغرب كل هذا جعل فردريك في موقف لا يحسد عليه، ومع ذلك نلاحظ أنه ظل متماسكا، ولم يفقد الأمل في تحقيق الغرض الذي جاء من أجله، ولجأ إلى إتباع سياسة ذات خطين متوازيين تمثل الخط الأول في الطريقة الدبلوماسية القائمة على مفاوضة الكامل وحثه على تنفيذ وعده له بتسليمه القدس، إذ بعث رسول إلى الملك الكامل يطالبه فيه بتنفيذ اتفاقه معه كما ذكرنا[40] . كما قام الإمبراطور باستخدام أسلوب الاستعطاف حيث أنه تظاهر بأنه ليس له غرض في القدس ولا غيرها من المناطق، وأن غرضه

الوحيد ينحصر في حفظ مركزه ووجاهته في الغرب ، فكتب إليه قائلا" إني عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيئ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي، وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية .وأنتم قد خربتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم علي بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك[41]، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك . فلان له الكامل وجاوبه أجوبة غليظة، وباطنها ناعم، وهو في هذا إنما يهون من هذه المسألة ويصورها على أنها مجرد إجراء شكلي لا أكثر[42].

ويلاحظ أنه في هذا الخصوص أن أسلوب الاستعطاف هذا يحمل في ثناياه تهديدا مبطنا باستخدام القوة فقد جاء في إحدى رسائله للكامل " : أنا أخوك واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء[43].

على رغم مما يظهر من أن هذه الرسالة هي رسالة استعطاف للكامل، إلا أنها تحمل في ثنايها نبرة التهديد المبطن، إذ يوضح الإمبراطور فيها، أن تسليمه القدس فقط هو الكفيل بتجنيب الطرفين الحرب وإراقة الدماء .كما يلاحظ أيضا أن الإمبراطور استمر قي استخدام دبلوماسية الاستعطاف في هذه المرحلة، فقد جاء في رسالة أخرى له " : أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخرجوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد الزيارة، فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر "وذكر ابن واصل أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين " : لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئا من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم"

أما الخط الثاني الذي سار عليه الإمبراطور في مفاوضته للكامل، فيتمثل في محاولة الضغط على الكامل وتخويفه من خلال محاولة الظهور بمظهر القوة المتزامنة مع الاستعداد العسكري، إذ تشير المصادر إلى قيامه خلال المفاوضات بشروعه في عمارة مدينة صيدا بعد أن استولى عليها على الرغم من انها كانت مناصفة بين المسلمين والصليبيين[44]، وأن سورها يجب أن يبقى خرابا لا يجوز لأي من الطرفين القيام بتعميره بموجب هدنة سابقة[45]. ويلاحظ هنا أن الإمبراطور قد ظل مصرا خلال هذه المفاوضات على موقفه القاضي بأن ينفذ الكامل له الشروط التي تم الاتفاق عليه .ويوضح ابن واصل هذا الموقف بالقول " : وأبى أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع

الشرط عليه من تسليم القدس إليه، وبعض الفتوح الصلاحي"، وهو ما كان الكامل قد امتنع عن تنفيذه[46].

أما الكامل فبالرغم من ترحيبه بالإمبراطور، ورده الرقيق على رسالته، إلا أنه أخبره صراحة بأنه لم يعد في حاجة إلى هذه مناصرته ضد أخيه المعظم، وأنه كان سوف يعطيه القدس ثمنا لهذه المناصرة لو انها قد تمت، اما وان الظروف قد تبدلت بموت المعظم، فإنه لا يستطيع التفريط ببت القدس[47].

وبالإضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن الكامل قد أعلن للإمبراطور بأنه سوف لا ينفذ ما كان قد وعد به، وأنه لن يسلم القدس، فإنه على ما يظهر قد بدأ يخشى قيام الصليبيين بعمل عسكري ضده، ولا سيما بعد قيام الإمبراطور بتحصين صيدا، وقد عبر المقريزي عن خوف الكامل هذا بقوله وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته، فأرضاه بذلك، ولعل خوف الكامل هذا ناجم أيضا عن استمرار النزاع بينه وبين ابن أخيه الناصر داود بن المعظم في دمشق[48]، حيث استمر الناصر في مناصبة الكامل العداء، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة متاعب الكامل ومخاوفه من الدخول في صراع جديد غير مضمون النتائج.

وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى تأثير الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، الذي سبق وأن حمل عرض الكامل إلى الإمبراطور بمساعدته ضد أخيه المعظم[49]، وكان يحمل رسائله إلى الإمبراطور خلال المفاوضات، إذ كان رأي الأمير يتمثل في دعوة الكامل إلى الالتزام بما وعد، وأن عليه تسليم القدس .إلى الإمبراطور[50]، وهو ما قام به الكامل في نهاية الامر.

المبحث الثاني: القدس من اتفاقية يافا حتى سقوط الدولة الايوبية

اتفاقية يافا التي تم التوصل إليها في عام 1229 ميلادي بين الصليبيين والأيوبيين، والتي أدت إلى إعادة فتح القدس للحجاج المسيحيين والحفاظ على المسجد الأقصى للمسلمين، لم تدم طويلاً. وبعد سقوط الدولة الأيوبية في عام 1250 ميلادي، سيطرت الدولة المملوكية على فلسطين ومصر، واستمرت في الحفاظ على السيطرة على المنطقة حتى العام 1517 ميلادي.

المطلب الأول: اتفاقية تسليم القدس (صلح يافا) 1229 م

عرفت اتفاقية تسليم القدس من قبل الكامل للإمبراطور فردريك باسم صلح يافا، وقد تم كتابة بنود

هذا الصلح باللغتين العربية والفرنسية، وحلف الحضور على الالتزام بما ورد فيها من بنود، حيث

حلف على ذلك كل من الكامل والإمبراطور[51]، وقد نص الصلح على البنود التالية:

1- مدة الاتفاق عشرة سنوات ميلادية.
2- تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم وتشمل قلاع الشقيف، وتبنين وجبلة ، واللد، والرملة وعسقلان، وبيت جبريل وكوكب وبيروت، وصيدا، ويافا،
3- تبقى بيت المقدس خربة، ولا يجدد سورها، وتكون قراها للمسلمين، وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمال القدس.
4- يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ويمارسون فيها الشعائر الدينية من أذان وصلاة، ويتولاها قوام مسلم، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة.
5- يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم.
6- يعطي للصليبيين بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس، حتى لا يتعرض الصليبيون القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن والقرى بين المسلمين.
7- إطلاق سراح الصليبيين ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا في حملة الأطفال السابقة.
8- تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضا عدم تقديم أية مساعدة لحكام انطاكيا وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام.

المطلب الثاني: القدس بعد صلح يافا

بعد توقيع الطرفين مباشرة، تم تسليم القدس للصليبيين في ربيع الأول سنة 1229م، فاستأذن الإمبراطور من الكامل بزيارة القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلب، وتسهب المصادر التاريخية في الحديث عن تفاصيل الزيارة[52]، هذا وقد كانت ردة الفعل على ما قام به الكامل عنيفا في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ففي مدينة القدس عم الحزن والبكاء وأنكر الناس هذا العمل[53]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الأئمة والمؤذنون العاملون في القدس، توجهوا إلى مكان إقامة الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان كتعبير عن هذا السخط[54]، وهو ما دفع الكامل إلى أن يأمر بأن " : يؤخذ ما معهم من القناديل والستور الفضة وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم أما في المناطق الأخرى، فقد أسهبت المصادر في الحديث عن السخط العام على ما قام به الكامل، فيصف المقريزي مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لضياع بيت المقدس فيقول " فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل.....وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء .واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار[55] ".....أما ابن

الأثير فيقول " : فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه

ويبدو أن الناصر داود قد استغل ذلك فشجع حملة التشهير الكبيرة التي تعرض لها الكامل في دمشق، فقد ذكر سبط بن الجوزي أنه" : لما وصلت الأخبار بتسليم القدس للفرنج قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم "فيذكر سبط بن الجوزي أن الناصر قد طلب منه أن يجلس للوعظ في جامع دمشق، وأن يتحدث عما جرى في بيت المقدس، وأنه لم يكن بإمكانه مخلفته من ناحية، وكذلك فان الحمية للدين الإسلامي تتطلب الموافقة من ناحية أخرى، فألقى خطبة مطولة في حضور الناصر وجمع غفير من أهل دمشق[56].

هذا ويظهر أن الكامل قد أدرك قوة حملة التشنيع التي مورست ضده، فعمل على تعليل الظروف التي دفعته إلى القيام بما أقدم عليه، إذ أنه برر ذلك بالقول" : إن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له .كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه "كما بعث برسل إلى الأقطار الإسلامية، وإلى الخليفة العباسي يبرر ما أقدم عليه، فكان تبريره لذلك بالقول " : إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأديرة خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالى المسلمين متحكم في الأعمال والضياع[57]

يلاحظ أن ردة الفعل على ما قام به الكامل من تنازل كانت عنيفة، ولم تقتصر على الحكام فقط، بل اتسعت لتشمل كذلك الفقهاء والشعراء وعامة الناس، الذين اعتبروا أن ما قام به الكامل بمثابة الكارثة والمصيبة الكبرى التي تقام لأجلها المآتم، وهو ما يوضح مدى أهمية القدس والدور والتأثير الذي مثلته القدس في الصراع الإسلامي الصليبي وما كان لها من تأثير على مجرى الأحداث السياسية الجارية .كما يلاحظ أن الكامل قد حاول جهده لتبرير ما أقدم عليه من تنازل قد لا يبدو مبررا من خلال العمل على التهوين من هذه المسألة وتصويرها على انها مجرد إجراء شكلي لا أكثر، وهو ذات الأسلوب الذي استخدمه معه الإمبراطور خلال مفاوضات صلح يافا.

المطلب الثالث: القدس حتى سقوط الدولة الأيوبية

عادت الخلافات الأيوبية بعد وفاة الكامل لتظهر من جديد، فتحالف الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور صاحب حمص ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب في مصر[58].كما انهما ضما الصليبيين إلى هذا الحلف وشرعوا جميعا في مهاجمة مصر ولكن هذه الحملة انتهت إلى الفشل بسب انضمام جيوش الصالح إسماعيل والمنصور إلى الصالح أيوب عند غزة، وهو ما أدى إلى هزيمتهما ومن معهما من الصليبيين هزيمة كبيرة[59].

كانت القدس قبل وفاة الكامل تخضع للصليبيين بموجب صلح يافا، ولكن الناصر داود سارع إلى السيطرة عليها بعد وفاة الكامل عندما علم بقدوم حملة صليبية جديدة نزلت عكا، وهو ما اعتبره نقضا لشروط صلح يافا[60]، أما بعد هزيمة غزة، فقد جاءت حملة فرنسية صغيرة إلى عكا لم تستطع عمل شيء سوى مطالبة الصالح إسماعيل باحترام اتفاقه مع الصليبيين قبل هزيمة غزة، وذلك بالاعتراف بملكية الصليبيين لبعض الحصون في فلسطين وكذلك القدس، وهو ما تم الاتفاق عليه[61].

عاد النزاع مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبي بعد فشل محاولات الصلح بينهم[62] ، فتحالف الصلح إسماعيل والناصر داود ضد الصالح أيوب، ولخوفهم من عدم قدرتهم على مواجهته، تحالفوا مع الصليبيين على أن يسلموا لهم القدس وأن يعملوا على إعادة مملكة بيت المقدس اللاتينية للصليبيين على ما كانت عليه قبل صلاح الدين، كذلك وعدوهم بأن يعطوهم جزءا من مصر في حال نجحوا في أخذها، يقول ابن واصل عن ذلك" : ولما اجتمعت كلمة هؤلاء على حرب الملك الصالح نجم الدين أيوب ومباينته، وعلموا مكاتبته إلى الخوارزمية، وانهم لا بد وأن يطرقوا البلاد ويجتمعوا مع عساكر الديار المصرية على حربهم، وعلموا انهم لا طاقة لهم به، وصالحوا الفرنج واتفقوا ، معهم على تسليم بيت المقدس إليهم، على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم وعلى تسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، وأن يأذنوا لهم في عمارتها، .فتسلم الفرنج ذلك كله وعمروا قلعتي، طبرية وعسقلان وحصنوهما، وأخذ بيت الأسبتار كوكب وعزموا على عمارتها، ودخل الفرنج القدس وتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى وما في الحرم الشريف من المزارات .وضمنوا للفرنج - على ما اشتهر - انهم إذا ملكوا الديار المصرية أن يكون لهم فيها نصيب .وجمع الفرنج الفارس والراجل وحشدوا[63] أما الصالح أيوب، فيبدو انه قد حاول هو الأخر التحالف مع الصليبيين، وعرض عليهم مقابل التحالف معه نفس العرض الذي عرضه الصالح إسماعيل والناصر داود، أي بمعنى أن تكون سيطر تهم على القدس كاملة[64] ولكن الصليبيين بعد تردد اختاروا الانضمام إلى الأيوبيين في الشام[65] واتفقوا معهم على مهاجمته قرر الطرفان مهاجمة مصر[66] بعد أن تسلم الصليبيين بعض القلاع في بلاد الشام، يقول أبن واصل : "وبعث الملك الصالح إسماعيل عسكرا إلى غزة، وعزموا على قصد الديار المصرية[67].ومضى الملك المنصور بنفسه إلى عكا، واجتمع بالفرنج وقرر معهم أن يمضوا معه لحرب الملك الصالح فأجابوه إلى ذلك "يبدو هذا الاتفاق كان يعني أن تكون سيطرة الصليبيين على القدس سيطرة تامة بما فيها الأماكن المقدسة وهي المناطق التي تم استثنائها من هذه السيطرة في صلح يافا كم ذكرنا، أمام هذا الوضع، لم يكن أمام الصالح أيوب إلا الاستنجاد بالخوارزمية الفارين من وجه

المغول، فراسلهم بهذا الخصوص، فما كان منهم إلا الترحيب بذلك فاندفعوا اتجاه بلاد الشام واحتلوا طبرية ونابلس والقدس سنة 1244م[68]، وهزموا قوى الأيوبيين والصليبيين قرب غزة[69]ولم يعد الصليبيون للسيطرة على القدس مرة أخرى. يلاحظ أن القدس قد لعبت مرة أخرى نقطة مركزية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكانت كذلك نقطة ورقة هامة في الصراعات الأيوبية الداخلية، يحاول من خلالها كل طرف دفع الصليبيين للتحالف معه من خلال ما يقدمه لهم من تنازلات بخصوصها.

الخاتمة:

أظهرت الدراسة أن القدس كانت دائما كما كانت من قبل النقطة المركزية في الإسلامي الصليبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى بعد أخر تحرير لها على يد الخوارزميين سنة 1244م، إذ اتخذ الجميع منها ورقة هامة سواء لتحقيق السلم أو الحرب على السواء، وكان الموقف منها له أثره الكبير في المفاوضات وكذلك في تشكيل التحالفات الكثيرة التي شهدتها تلك الفترة . ففي الحملة الصليبية الخامسة شكلت القدس نقطة هامة في الصراع الإسلامي الصليبي عندما عرض الأيوبيين على الصليبيين التنازل لهم عنها وعن جميع فتوح صلاح الدين مقابل انسحابهم عن مصر.كما كانت نقطة مركزية في الصراع بين الأمراء الأيوبيين أنفسهم وبخاصة بين الكامل والمعظم، حيث عمل كلاهما على استخدامها كورقة هامة في تحالفاته ضد الآخر، وأن الملك الكامل قد تنازل

فعلا للصليبيين عنها .كما كانت نقطة هامة ومركزية في الصراع بين الصالح أيوب من جهة و الصالح إسماعيل والناصر داود من جهة أخرى، بحيث تنازل الأخيران عنها وسلماها للصليبيين وهو الأمر الذي كان الصالح أيوب على استعداد لعمله في سبيل التحالف مع الصليبيين. كما يتضح أن كل الأطراف كانت دائما تحاول التخفيف من حدة ردة الفعل إزاء ما تقوم به تجاه المدينة كما فعل كل من الإمبراطور فردريك والكامل حيث صور الأول للكامل أن تسلميه للقدس ليس أكثر من إجراء شكلي، وهو الأمر ذاته الذي ينطبق على الكامل الذي صور تنازله

عنها للإمبراطور بأنه إجراء شكلي ليس أكثر. واتضح كذلك أن القدس لم تكن نقطة مركزية عند الحكام والملوك فقط، بل كانت عند عامة الناس الذي كان دائما ما ينتابهم السخط مما يحل بها حتى عندما يكون الغرض حمايتها كما حدث مع المعظم عيسى، ومع الكامل الذي كان السخط عليه كبيرا وعاما لم يقبل فيه كل التبريرات التي حاول تقديمها .وكذلك حدث ذات الامر عندما تنازل عنها كل من الصالح إسماعيل والناصر داود.

الهوامش:

1 عاشور، سعيد عبد الفتاح .الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1996)، 73
2 عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، 76
3 عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، 91-100
4 ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2002)، 95
5 عمران، محمد سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، (القاهرة، دار المعرفة الجامعية،2009)، 227
6 عمران، محمد سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، 226-227
7 عمران، محمد سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، 227-232
8 عمران، محمد سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، 225
9 ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية، ج3، 258
10 المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي .السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر، عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، الجزء الأول، 317-322
11 ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، 260
12 ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، 270
13 المقريزي، السلوك، ج1، 314-320
14 ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف .النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1992)، 202
15 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 315-316
16 عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، 9-14
17 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 18-19
18 ابن الأثير، الكامل، ج10، 377-378
19 أبي شامة، الروضتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،2002، 137-138
20 ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف .النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 122.
21 عاشور، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، 1996، 88

22 ابن الوردي، زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، ج2، 146
23 المقريزي، السلوك، ج1، 314-327
24 ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج 7، بيروت : دار الثقافة، 1989، 202
25 الدواداری، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك .كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، 314-318
26 المقريزي، السلوك، ج1، 332
27 المقريزي، السلوك، ج1، 335-337
28 المقريزي، السلوك، ج1، 309
29 عمران، الحروب الصليبية، 259-262
30 عاشور، الايوبيين والمماليك، 96-97
31 أبي شامة، الروضتين، 292-299
32 عمران، الحروب الصليبية، 280
33 عمران، الحروب الصليبية، 281
34 ابن الوردي، ج2، 150
35 الدوداری الدرر، ج7، 293
36 عاشور، الايوبيين والمماليك، 112
37 عاشور، الايوبيين والمماليك، 384
38 عاشور، الايوبيين والمماليك، 383
39 عاشور، الايوبيين والمماليك، 384
40 عاشور، الايوبيين والمماليك، 387
41 المقريزي، السلوك، ج1، 343
42 عاشور، الايوبيين والمماليك، 99
43 المقريزي، السلوك، ج1، 355
44 أبي شامة، الروضتين، ج5، 138-143
45 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 205
46 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 180
47 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 206
48 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 175
49 ابن المقريزي، السلوك، ج1، 345
50 ابن المقريزي، السلوك، ج1، 345

51 ابن المقريزي، السلوك، ج1، 347
52 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 206
53 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 209
54 الدوداری الدرر، ج7، 293
55 الدوداری الدرر، ج7، 294
56 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 243-244
57 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ،1987، 212
58 عاشور، الايوبيين والمماليك، 102
59 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ،1987، 230
60 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 224
61 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 227
62 ابن الاثير، الكامل، ج10، 479
63 ابن الاثير، الكامل، ج10، 479
64 ابن الاثير، الكامل، ج10، 480
65 المقريزي، السلوك، ج1، 351
66 المقريزي، السلوك، ج1، 354
67 المقريزي، السلوك، ج1، 355
68 عاشور، الايوبيين والمماليك، 106
69 ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، 278

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2022. - ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف .النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992.
- ابن الوردي، زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج7بيروت : دار الثقافة، 1989.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي.

-ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، ج 2، القاهرة : مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامة، المطبعة الأميرية.

-أبي شامة، الروضتين، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002.

- الدوادارى، أبي بكر بن عبد الله بن أيبك .كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972.

- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي .السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح .الأيوبيين والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996.

- عمران، محمد سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، دار المعرفة الجامعية،2009.

Sources and references

-Ibn al-Atheer, Izz al-Din Abu al-Hasan Ali bin Muhammad bin Abdul Karim al-Jazari al-Shaybani, al-Kamil fi al-Tarikh, reviewed and authenticated by Muhammad Yusuf al-Daqqaq, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, fourth edition, 2022. - Ibn Taghri Bardi, Jamal al-Din Abi al-Mahasin Yusuf. The Bright Stars in the Kings of Egypt and Cairo, edited by Muhammad Hussein Shams al-Din, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, first edition, 1992.

-Ibn al-Wardi, Zain al-Din Omar, The History of Ibn al-Wardi

-Ibn Khallikan, Abu Abbas Shams al-Din Ahmad bin Abi Bakr: Deaths of Notables and News of the Sons of the Time, edited by Ihsan Abbas, vol. 7, Beirut: House of Culture, 1989.

-Ibn Kathir, Al-Hafiz Imad al-Din Abi al-Fida Ismail bin Omar, The Beginning and the End, edited by Abdullah bin Abdul Mohsen al-Turki.

-Ibn Wasil, Jamal al-Din Muhammad bin Salem: Mufarrej al-Karub fi Akhbar Bani Ayoub, edited by Hassanein Muhammad Rabie, reviewed and presented by Saeed Abdel Fattah Ashour, Part 2, Cairo: Publications of the Department of Revival of Ancient Heritage, Ministry of Education, Department of General Culture, Al-Amiriya Press. .

-Abu Shama, Al-Rawdhatain, Shihab al-Din Abd al-Rahman bin Ismail bin Ibrahim bin Othman al-Maqdisi al-Dimashqi al-Shafi'i, biographies of men of the sixth and seventh centuries known as

the tail on al-Rawdhatain, footnoted and commented on by Ibrahim Shams al-Din, published by Muhammad Ali Baydoun, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, ed. First, 2002.

-Al-Dawadari, Abu Bakr bin Abdullah bin Aibak. Treasure of Pearls and Jami' al-Gharar, Part Seven, Durar al-Mutawab fi Akhbar Bani Ayyub, edited by Saeed Abdel Fattah Ashour, Cairo, 1972.

-Al-Maqrizi, Taqi al-Din Abi al-Abbas Ahmed bin Ali bin Abdul Qadir al-Obaidi. Behavior to know the countries of kings, edited by Muhammad Abdel Qader Atta, Muhammad Ali Baydoun Publications, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1987.

-Ashour, Saeed Abdel Fattah. The Ayyubids and the Mamluks in Egypt and the Levant, Arab Renaissance House, Cairo, 1996.

-Imran, Muhammad Saeed, History of the Crusades, Cairo, University Knowledge House, 2009.

The importance of Jerusalem in the Islamic Crusader conflict between the years 1192-1250

MUHAMMED ALJASEM
MARDİN ARTUKLU ÜNİVERSİTİ- Türkiye

Dr. Mustafa Qaddad
MARDİN ARTUKLU ÜNİVERSİTİ- Türkiye

m.aljasem1980@gmail.com

Keywords: Islamic history, the Ayyubid state, Jerusalem.

Summary:

This research provides a historical overview of the role of Jerusalem in the various stages of the Islamic Crusader conflict after the death of Salah al-Din al-Ayyubi in 1152 AD, and until the fall of the Ayyubid state in 1250 AD. The research shows that Jerusalem was the core point in the Islamic Crusader conflict, and had an important role in determining the position of the two parties and its justifications in the contacts and negotiations held between the two parties during the long period of conflict.

The research has adopted the historical methodology through the collection, criticism and analysis of historical narratives that dealt with the different stages of negotiations has been divided this study into two sections dealt with in the first section the importance of Jerusalem to the Crusaders and attempts to restore, and the second section dealt with Jerusalem from the Jaffa Agreement until the fall of the Ayyubid state.

The research was based mainly on historical sources, without neglecting some recent Arab studies that dealt with some aspects of the conflict. The study showed that Jerusalem was always as it was before the central point in the Islamic Crusader conflict after the death of Salah al-Din al-Ayyubi even after its last liberation by the Khwarizmians in 1244 AD, as everyone took it as an important card, whether to achieve peace or war alike, and the position of it had a great impact on the negotiations as well as in the formation of the many alliances witnessed in that period.